جـــــــردةُ حـــــــســـــــابٍ أُولـى

طارق علي

انتهت الحربُ العربية ـ الإسرائيلية السادسة بانتكاسةٍ خطيرةٍ لإسرائيل ولرُعاتها في واشنطن ولندن. فهذه هي الحرب الأولى التي تتجاوز فيها الخسائرُ العسكريةُ الإسرائيلية خسائرَ أعداء إسرائيل من العسكر ولم يُخْفِ بوش، وكلبُه الهجومي [بلير]، أهدافهما الحربية فقد أرادا تدميرَ حزب اللّه، وكانا واثقيْن بالنصر إلى حدِّ توهُّمِهما أنّ أسبوعًا إضافيّاً من الجرائم ـ من القصف، وقتل المدنيين، إلى آخره ـ قد يحقّق النتيجة غير أنّهما استخفّا بالدعم الذي يلقاه حزبُ اللّه، وبمهاراته السياسية والعسكرية وبالرغم من انعدام التناسب بين الطرفيْن (فحزب اللّه أقلُّ عددًا بكثير ويواجه عدوّاً يتمتّع بتشكيلة واسعة من التقنيات العسكرية المتطوّرة)، فإنّ نوعية المقاومة فاجأتْ جيشَ «الدفاع» الإسرائيلي.

نجم عن ذلك أزمةٌ سياسيةٌ داخل المؤسسة الإسرائيلية، وبدأ العمل على إيجاد أكباش محرقة الأرجح أن تتمّ التضحيةُ بـ «التعيس» أمير بيريتس؛ فليس ثمة سياسي أو ضابط إسرائيل على استعداد لمواجهة حقائق الوضع: فإمّا نهايةٌ دائمة للاحتلال في فلسطين ولبنان، وإمّا حربٌ مديدةٌ لِما تبقّى من هذا القرن

من الحماقة أن نتصوّر أنّ الحرب انتهت. فالإسرائيليون، بعد أن هُزموا في مسعاهم الفجّ والبربري لتحطيم حزب اللّه ولإلحاق العقاب الجماعي بالشعب اللبناني، سيحاولون الكَرَّةَ، وذلك من خلال المناورات والمكائد السياسية، بل ومن خلال هجوم عسكري جديد عند الضرورة. على السياسيين اللبنانيين وكتّاب الأعمدة من الصحافيين ممّن تملّكتْهم أوهامٌ خطيرةٌ حيال الولايات المتحدة، فضلّلوا شعبَهم؛ أقول على هؤلاء ألاّ يكرِّروا أخطاءهم. فتوجيهُ اللوم إلى إيران وسوريا بسبب ما فعلتْه إسرائيل، بدعم من الولايات المتحدة، أمرٌ أحمقُ ويثير نتائجَ عسكية. إنّ الولايات المتحدة لن تدافع عن استقلال لبنان وكيف لها ذلك؟ إنّ الأميركان يريدون أن يصبح لبنانُ محميةً إسرائيليةً ـ فرنسية. لقد بدأتْ إعادةُ استعمار الشرق العربي، بمساعدة القوى الكولونيالية القديمة والجديدة، مع اتفاقيات أوسلو، وتلاها غزوُ العراق واحتلالُه. وقد تسبّب الأمران، أوسلو واحتلالُ العراق، بالكارثة، وهو ما ينطبق على الحرب على لبنان أيضًا. أما الزعماءُ الفاسدون في السعودية والأردن ومصر الذين أعطوْا موافقتَهم (سرّاً) لإسرائيل بشنّ الحرب، فقد أَمِلوا أن يَنْجح الغرب. وهؤلاء الزعماء تلقّوْا هم أيضًا ضربةً قويةً؛ ولو سُمِحَ بالديموقراطية في تلك البلدان الثلاثة، فمَنْ كان سيَشكُّ في أن تَعْمد الغالبياتُ الشعبيةُ الكبرى فيها إلى إسقاط سلالةِ آل سعود والدُّمى الهاشمية ومبارك وعائلتِه؟ وهذا يفسِّر لماذا لا يَدْعم الغربُ الديموقراطيةَ في إقطاعاته.

إنّ حزبَ اللّه يستطيع أن يدافع عن لبنان، وقد دافع عنه فعلاً كما أنّه أرسى الركيزةَ الحقيقيةَ للاستقلال اللبناني. وهذا الاستقلال لا يمكن بعد اليوم حمايتُه بالادِّعاء والتظاهر. بل إنّ إحصاءً رسميّاً للبلدان ضروريّاً اليوم من أجل تقرير مستقبل الديموقراطية في لبنان. إنّ التقسيم الكولونيالي لهذا البلد قد لاءم فرنسا في الماضي، لكنّه لم يكن ملائمًا لشعب لبنان ـ وهذا يَنْطبق على الواقع اليوم أكثر من أيّ وقت مضى إذن، إمّا أن يؤمِن المرءُ بالديموقراطية التمثيلية (خلافًا للديكتاتورية المصرية التي أَكَلَها العُثُّ) ـ وفي هذه الحال يجب إحصاءُ عدد المواطنين اللبنانيين ـ أو التخلّي عن كلّ ذلك والقبولُ بمنزلةِ الخضوع للاستعمار. هذان هما الخياران اللذان يواجهان لبنان

إنّ سياسيي لبنان يتعرّضون للضغط من قِبل أصدقائهم الغربيين لكي يَفْعلوا شيئًا، لكنّ البربرية الإسرائيلية تصعِّب أمورَهم كثيرًا أشكّ في أنّهم سيتعلّمون أيّةَ دروسٍ حقيقية من هذه المأساة، غير أنّ شيئًا واحدًا لا يستطيعون فعلَه، وهو نزعُ سلاح حزب اللّه فهذا سيكون قريبًا من الانتحار!

لندن

د. طارق علي

مثقف باكستاني ـ بريطاني مستقلّ وقد كتب مقالَه خصّيصًا لـ الآداب، وترجمها رئيسُ التحرير